مداخلة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في الطاولة المستديرة التي تمّ تنظيمها بمناسبة نشر كتاب "الإرساليّة اليسوعيّة في غزير-١٨٤٣-١٩٦٥ ؛ عودة الرهبنة اليسوعيّة إلى لبنان" – منشورات جامعة القدّيس يوسف، يوم الأربعاء الواقع فيه ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٩، في قاعة محاضرات فرانسوا باسيل.

أيّها الأصدقاء الأعزّاء،

حضرة الموقّعَين على كتاب "**الإرساليّة اليسوعيّة في غزير-١٨٤٣-١٩٦٥ ؛ عودة الرهبنة اليسوعيّة إلى لبنان**".

لا يسعني إلا أن أرحّب بكم في هذا اللّقاء حول الكتاب الذي يوقّعه سعادة الدكتور خليل كرم والبروفسور شربل متّى حول مغامرة، مغامرة رائعة، تلك التي قام بها الآباء اليسوعيّون في بلدة غزير. كنت شاهدًا على الطاقة الكبيرة والوقت الذي أمضاه المؤلّفان ليقدّما لنا هذا الكتاب التاريخيّ الرائع والمصوّر بعناية فائقة ومهارة. أنا أيضًا شاهد على ما كانت عليه غزير كموقع رفيع المستوى في تنشئة القلب والروح بما أنّي أمضيتُ فيها حوالي عشر سنوات كطالب وتلميذ. الجزء الأوّل، منذ العام ١٩٥٩ وحتّى العام ١٩٦٥، كانت الإكليريكيّة بإدارة اليسوعيّين ثمّ انتقلت إلى إدارة البطركيّة المارونيّة. إنّ مساهمة الناشر وهو ليس إلا منشورات جامعة القدّيس يوسف في بيروت Presses de l'USJ ألبست الكتاب حلّة إحترافيّة مصنوعة من الجمال والتمييز.

كان الأب عبد الله داغر، وهو يسوعيّ عاش في القرن العشرين، يخبرني وهو يعلّق على تاريخ جبل لبنان في القرن التاسع عشر، أنّ جبل لبنان كان لديه عاصمتان ولا ثالث لهما : بكفيا حيث استقرّ اليسوعيّون في العام

١٨٣٣ وغزير بعد عشر سنوات، في العام ١٨٤٣. كانت الأولى مرادفة للتجديد الروحيّ والرعويّ من خلال تأسيس الرهبانيّات المريميّة الشهيرة وإنشاء أوّل رهبانيّة نسائيّة رسوليّة وهي راهبات القلبين الأقدسين، وكانت غزير مرادفة لتجديد التعليم من خلال تأسيس الإكليريكيّة ومدرستها بهدف تنشئة رجال الدين في الكنائس الكاثوليكيّة، بمعنى آخر، قادة يوجّهون هذه الكنائس سعيًا إلى التزام ثقافيّ وروحيّ وإجتماعيّ متزايد للإكليروس وللعلمانيّين الذين تمّ قبولهم في الإكليريكيّة منذ العام ١٨٥٥ لكي يشعّوا بإيمانهم المستنير بالعقل والحكمة الإلهيّة.

أراد الدكتور كرم والبروفسور متّى أن يكون هذا الكتاب تكريمًا لمئات اليسوعيّين الذين شاركوا وترأسوا رسالة دير غزير وكذلك إكليركيّته وكليّته. هذه الرسالة هي التي كان من شأنها أن تهيّء لإنشاء المطبعة الكاثوليكيّة لليسوعيّين في بيروت في العام ١٨٥٣ وجامعة القدّيس يوسف في بيروت في العام ١٨٧٥ وكذلك المدرسة الثانويّة للجامعة التي أصبحت مدرسة سيّدة الجمهور منذ العام ١٩٥٢.

في الواقع، تعتمد أصول إكليريكيّة غزير لا فقط على رغبة اليسوعيّين أو قرارهم، ولكن على عدم الارتياح في ما يتعلّق بتنشئة الكهنة. وكان البطاركة الكاثوليك قد عبّروا مرارًا في العام ١٨٣٠ عن رغبتهم في رؤية اليسوعيّين يؤمّنون هذه التنشئة. بهذا المعنى، كان المجمع المقدّس لانتشار الإيمان الكاثوليكيّ في روما غير راضٍ عن تنشئة الإكليروس عند الكاثوليك الشرقيّين، لا سيّما الموارنة، فقرّر إرسال الأب ماكسيميليان ريلو الرسولي البلوني Maximilien Ryllo إلى سوريا في العام ١٨٣٦، لدراسة مسألة تجديد تعليم الإكليريكيّين. عاد ريلو Ryllo إلى روما مع فكرة إنشاء "معهد آسيا الغريغوريّ" كما كتب الأب اليسوعيّ سامي خوري في كتابه *Histoire du Liban à travers les archives des Jésuites* (تاريخ لبنان من خلال أرشيف اليسوعيّين). لكنّ خليفة الأب ريلو، الأب بنوا بلانشيه Benoît Planchet هو الذي حقّق هذا الحلم : لقد

استحوذ لهذه الغاية على قصر آل شهاب في غزير وفتح في العام ١٨٤٣ مدرسة صغيرة استقبلت عشرات الطلاب من الأبرشيّات المختلفة. في العام التالي، ازداد عدد الطلاب ووصل إلى مائة وخمسين طالبًا في العام ١٨٥٧، يُضاف إليهم حوالى ثمانون طالبًا في الإكليريكيّة. وعندما قرّر اليسوعيّون نقل مدرستهم الثانويّة من غزير إلى بيروت وإنشاء جامعة القدّيس يوسف في بيروت، تقرّر إغلاق أبواب الإكليريكيّة في غزير. كان يجب إعادة فتحها فقط في ١٩٣٤–١٩٣٥ تحت اسم القدّيس مارون لاستقبال الأكاديميّين المارونيّين.

لقد كانت التنشئة هي الرسالة الرئيسيّة التي اعتمدتها الإكليريكيّة وكليّتها، الأمر الذي كان السمة المميّزة لسياسة الرهبنة اليسوعيّة في أوروبا وخارجها. كانت هذه التنشئة تهدف إلى تشكيل مجموعة من الكهنة المثّقفين والقادة في جماعاتهم. لقد تمّ تنفيذ هذه المهمّة الأولى بشكلٍ كامل. ولكن يمكننا أن نضيف أنّ العديد من الشباب العلمانيين استفادوا من هذه التنشئة وهذا التعليم، بقدر ما لم يكن جميع طالبي الكهنوت يصلون إلى هدفهم بأن يصبحوا كهنة، ومن ناحية أخرى، كانت المدرسة تستقبل سنويًّا شبابًا علمانيّين من خارج الإكليريكيّة الذين كانت عائلاتهم ترسلهم لتلقّي التنشئة في مدرسة المعرفة والإرادة والحريّة التي كانت تلك القيم التي تهيّئ ببطء، وعلى مدى أكثر من ١٢٢ عامًا، النظام الاجتماعيّ والأخلاقيّ لتأسيس لبنان الكبير في العام ١٩٢٠.

صحيح أنّ صدور هذه الدراسة عن اليسوعيّين في غزير يتزامن مع الاحتفال بذكرى تأسيس دولة لبنان الكبير في العام ١٩٢٠، والذي كان، قبل بضعة أشهر، هدفًا للانتقادات من أولئك الذين جعلوها دولة تحتضر بسبب نظام سياسيّ طائفيّ بشكلٍ مفرط ومرتهن للمصالح السياسيّة الأكثر بدائيّة. اليوم، يمكننا أن نقول إنّ الإنتفاضة الوطنيّة، وهي فعلاً إنتفاضة وطنيّة ولبنانيّة، تُعيد القوّة إلى هذه الفكرة الرائعة التي كانت نتيجة إرادة ما لا يقلّ عن جزءٍ كبير من لبنانيّي تلك المرحلة. نحن نعلم أنّ على رأسهم كانت هناك ولا تزال روح هذه الفكرة التي راودت غبطة البطريرك الياس الحويّك الذي أجاب حين سؤل عن انتمائه الاجتماعي : "جماعتي هي لبنان."

إذا اعتبرنا البطريرك الحويّك مؤسّسًا مشاركًا لدولة لبنان الكبير، فذلك لأنّه نشأ وترعرع على هذه الفكرة، فكرة الانتماء اللّبنانيّ في غزير نفسها حيث أمضى سنة قبل مواصلة دراسته في روما. معلّمون يسوعيّون أمثال فيليب كوش Philippe Cuche وآخرون قدّروا الوجود الفكريّ للشابّ الحويّك. من دون هذه التنشئة التي تلقّاها في غزير، ما كان البطريرك ليضطلع على هذا الدور التاريخيّ الذي كان دوره حين توقيعه في سنة ١٩١٩ معاهدة فرساي Versailles. تألّق الكثير من العلمانيّين والكهنة بعلمهم بفضل تنشئتهم في غزير، مثل الرسّام داوود قرم الذي أُرسِل إلى روما لإتقان فنّه.

منذ العام ١٨٢٠ وحتّى أيّامنا هذه، كان لبنان مسرحًا للتمرّد، فكانت عاميّات الفلاحين (نُظِّمَت ضمن تجمّعات شعبيّة مثل أنطلياس ولحفد بقيادة الإكليروس المارونيّ)، في حين تمّت قيادة عاميّات أخرى من قادة بقوا مجهولين خوفًا من أن يتمّ توقيفهم من قِبَل السلطة العثمانيّة. ما يعيشه لبنان اليوم هو نوع من العاميّة، ذلك التمرّد الشعبيّ السلميّ الذي لا ينبع فقط من ردّ فعل على وضع إجتماعيّ سياسيّ معيّن، ولكن من وعي لبنانيّ مشترك يبغي إعادة إحياء الصيغة والكيان اللّبنانيّ وحمايتهما من ممارسة سياسيّة تتلاعب بالجماعات وتولّد الانقسام والفساد. منذ ١٧ تشرين الأوّل (أكتوبر)، يسعى الأشخاص في حراكهم، ومن دون قادة مرئيّين، ومن دون تسلسل هرميّ، إلى بناء علاقات جديدة بين الناس، وربّما مجتمع آخر من التعايش والأخوّة وإنشاء جمهوريّة أكثر انتماءً للمجتمع والديمقراطيّة. في هذا الحراك الشعبيّ، هناك رغبة عميقة بالديمقراطيّة الإجتماعيّة وتوق كبير إلى المساواة. هذه الرغبة تعبّر عن نفسها في الكلمة المتحرّرة من كلّ قيد وفي هذا الحماس الانفعاليّ الموحّد الذي غير المستعدّ للتلاشي، وإن كان لا يجب التقليل من أهميّة مخاطر التجاوز أو إلغائها. وبهذه الطريقة، لا تزال روح سيادة البطريرك الحويّك وإكليريكيّة غزير حيّة لأنّها كانت بمثابة وعد لمجتمعنا بالمزيد من الوحدة والرفاهيّة.

لنقل أيضًا إنّ ما تبقّى لنا من تجربة إكليريكيّة غزير ومدرستها، هو أنّه تمّ دمجها بشكلٍ كامل في حياة المدينة من خلال المشاركة في لحظات فرحها وحزنها. كان بناء تمثال القلب الأقدس في مرتفعات غزير أحد الأمثلة المعبّرة لهذا التعايش والتكافل. لم تكن منفصلة أو معزولة ضمن بوتقة معيّنة، لكنّها كانت جزءًا من فخر أهالي غزير الذين اعتبروا الإكليريكيّة مركزًا ثقافيًّا وروحيًّا أكثر من مجرّد مركز تعليميّ. إلاّ أنّ هذه الإكليريكيّة المدرسة لعبت دورها المضاعف للثقافة وانتشار الإيمان من خلال الآلاف من رجال الدين الذين لعبوا في الكثير من الأحيان دورًا مهمًّا للغاية في حياة الكنيسة والمدينة. وكذلك الأمر، لا يمكن فصل وجود راهبات القلبين الأقدسين عن تاريخ الإرساليّة لأنّ ديرهم في غزير ساهم إلى حدّ كبير في تنشئة فتيات المنطقة.

شكرًا دكتور كرم وشكرًا بروفسور متّى على هذه الوصيّة التاريخيّة التي من المفيد ترجمتها إلى اللّغة العربيّة من أجل خير أجيالنا.